في ذكرى فؤاد أبو حطب
زفرة أسى وتصميم

د/ حمدى على الفرماوى *

إن حزنى على أستاذى ومعلمى الدكتور فؤاد أبو حطب ، هو حزن يفوق مجرد فقد عزيز أو غال ، كما هو المتعارف عليه فى دنيا البشر ، ذلك أن المعلم الراحل إستاذى الذكتور فؤاد أبو حطب ليس فقط أستاذاً علمنى أو معلماً أرشدنى وتتلمذت على يديه ، إنما هو بجانب ذلك ، وفضلا عن ذلك رائداً من رواد المعرفة ومصباحاً من مصابيح العطاء ، كانت مجرد لقاءاتى به أو تواجدى معه وإطلالتى فى وجهه فى حد ذاتها خيراً وعطاءاً من مدد النور ، وليس ذلك غريباً أو بدعاً فإن لله سبحانه وتعالى عباداً مجرد النظر فى وجوههم هو خير وتنوير .

إن الحديث عن أستاذ جليل ومُرب كريم يطول وتتسع حواشيه مما يدفعنى إختصارا إلى أن يخرج فى أربع زفرات مهمة .

(١) لقد كان الراحل الكريم قمةً وذروةً فى جيله ، تلاه الكثير من المتلقين والمتعلمين ، وأسمحوا لى فى هذا المقام أن أحدد موقع الجيل الذى ينتسب إليه فؤاد أبو حطب مقتبساً اللغة الجميلة التى وصف بها فؤاد أبو حطب نفسه منحنى النمو عند الإنسان ، فأرى أن جيلى يمثل وسطاً بين طرفين وتدرجاً فى الضعف بين قطبين ، قطب يمثل القوة وريادة علم النفس فى مصر ، إنتسب إليه فؤاد أبو حطب ، وقطب آخر يتدرج فى الضعف ، يقف أمامه جيل الوسط غضبان أسفاً ، بل مصارعاً أحياناً عوامل الإنحدار ، أسفاً على ما شهده من توهج جيل القوة ، مقارناً بما يراه اليوم من تواضع وتطامن فى كثير من المتلقين لا المبدعين .

إن جيل فؤاد أبو حطب يمثل مع أجيال ثلاثة لعلم النفس فى مصر ، الريادة والإبداع ومصابيح المعرفة على مدى يزيد عن نصف قرن من الزمان ، تتلمذ جيلنا على يديهم وشهد جهادهم وشموخ الأستاذية فيهم ، أصابوا أصول المعرفة ومنابع الصدق ، تألقوا فى فنون البناء لا الهدم ، والتجمع لا التمزق ، والتأصيل لا السطحية ،

(*) أستاذ مساعد كلية التربية جامعة المنوفية .

ومن ثم وقفنا فى جيلنا نرفع لهم جناح الحب ونرنوا إلى هذه المصابيح المتوهجة آملين أن يستمر هذا الوهج ويمتد حيث تنقشع جيوش الهدم وأعداء النجاح ، ولكن أنى لمصباح متوهج أن يدوم حيث حقيقة فنائه تكمن فى توهجه .

(٢) إن جيل فؤاد أبو حطب كان قدره أن يكون من أجيال «الكبار» فى مصر ولئن كانت مدرسة علم النفس فى مصر عائلة معرفية ، فلقد كان فؤاد أبو حطب أحد كبار هذه العائلة ، صنع نفسه فتألقت فيه تلقائية الأصالة ، وأصالة التلقائية ، وقابلية الإمكانية فى ثرائها وتميزها ، مارس أستاذيته على كل من صحبه أو تتلمذ عليه ، وفى الوقت نفسه أبر بتلاميذه فأبروا به ، وحتى لو انقطعت الصلة فلا ينقطع الفيض، وهذا هو شأن العطاء من لدن «الكبير» ، من هنا كان الأستاذ الدكتور فؤا د أبو حطب المدرسة لجيلى والجامعة له حيثما يكون هذا الجيل فى حله وترحاله .

(٣) كان فؤاد أبو حطب من بين «حراس المسيرة» مسيرة العلم فى مصر ، والمنطقة بأسرها ، يخجل الأدعياء ويتوارون حتى من ظهور أشباحهم فى وهج هؤلاء ، فكان مهاباً لا يجترئ عليه الصغار ، يحق الحق ويبطل الباطل ، فارسا شديد البأس فى معارك المعرفة ، ينقل إلى الجيل الحالى تراث أجيالهم التالدة الذى كان له شرف معاصرتهم وتوريث معرفتهم ، ليس هذا فحسب بل تأصيلها وتقنيتها وتنظيرها ، ولئن كان من دأب بعض الأساتذة أن ينقلوا التراث المعرفى حيث يقومون بتدريسه لمتلقيهم ، فلقد كان من دأب أستاذى الراحل المزاوجة بين التراث العلمى وأخلاقياته ومبادئ رواده الأوائل ، منها يصوغ للمهنة مبادئها وللمنهج ميثاقه ومصداقيته .

(٤) لقد مثل جهاد فؤاد أبو حطب ونتاجه العلمى فؤاد علم النفس فى مصر ، كان غيوراً عليه وعلى منتسبيه ، أرخ له ، وانتقل به إلى علم ينفع الناس ويجذب الناس ويتحدث به الناس ؛ وكان على المستوى العالمى ذا مكانة بارزة ، دائب التواجد فى المحافل الدولية ، حمل إليها هموم «علم النفس فى مصر» ، يؤرخه لروادها بغيره وحرص ، فكان سفيرا لعلم النفس صادقاً فى تمثيله ومصرياً بالغ المصرية ، معتزاً بها متشرباً لقيمها ، شامخا بها ولها .

من هنا ومن أجل ذلك شاء الله ولا راد لمشيئته أن يكون حزنى وفَرَقى ، ووجدى على أستاذى حزناً عاماً على كل جيله من الرواد الكبار ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾ كما قال الله العظيم فى قرآنه المبين ، وليس بدعاً والأمر هكذا أن يتملكنى ذلك الحزن وهذا الوجد ، ليس فقط بالنسبة لشخصى ولكنه حزن جيل بأكمله كان قدرى أن أكون واحدا من أبناء هذا الجيل ، الذى قدر له

أن يشهد توارى هؤلاء المصابيح الأوائل ، ولست أعدو الحقيقة إن قلت إنهم لن يعوضوا أبداً .

واسمحوا لى ألا أبرح هذا المكان قبل أن أسرد بعضا من مواقفه التى حلفت بها جعبة مصاحبتى له طوال إعداده لى . فلقد شرفت بالتلمذة على يديه منذ أواخر السبعينيات ، وحتى سفرى للبعثة فى المملكة المتحدة وما بعدها ، فأذكر عندما تم الإنتهاء من الماجستير وتسجيلى معه للدكتوراه ، أن رشحت على بعثة للمملكة المتحدة ، فذهبت إليه فى قسم علم النفس التربوى على استحياء يتنازعنى إتجاهان قويان : أحدهما يشدنى إلى تكملة الدراسة معه فى مصر ، بينما يشدنى الآخر إلى استيفاء حقى فى البعثة التى رشحت إليها ، وهو صراع شديد من نوع «الإقدام -إقدام» فوجدته بترحاب يبادرنى «مبروك يا حمدى» فقلت له لكنى يا أستاذى أعمل فى رسالتى للدكتوراه بلا مشاكل ، وفى موضوع يتميز بالجدة والجدية ، وإذ ذاك بادرنى بقوله : «الأمر ليس هكذا ... لو كنت ستناقش الدكتوراه غداً . لقلت لك فوراً سافر ولا تدع هذه الفرصة تفوتك ... لأن الأمر ليس مجرد درجة فقط فى البعثة ، إنى أوصيك .. بالتعرف جيداً على مصادر المعلومات الأجنبية ، ومنبعها وأصولها ، بالإضافة إلى اكتساب اللغة الإنجليزية ممارسةً وتحضيراً ... وقد عرفت أنك سوف تلتحق بجامعة «ويلز» وإن كان الأمر كذلك فلا تسجل إلا مع أستاذ شهير هناك أعرفه جيداً وهو «ديفيد فونتانا» وإن لم يكن كذلك فاذهب إلى مانشستر ...» ، وفعلاً التحقت بجامعة «ويلز» وتقابلت مع «ديفيد فونتانا» حيث أراد فونتانا أن يعرف موضوعى وخلفيتى الدراسية ، وعندما ذكرت اسم الراحل فؤاد أبو حطب بادرنى بالترحيب والإعجاب بهذا الأستاذ الجليل مشيراً إلى صداقته معه ، ثم قال لى يصفه «إنه بروفسور ممتاز ورجل طموح ومهموم كثيراً بمشاكل علم النفس ودارسيه» .

ولقد شجعنى ذلك أن أصارحه بأننى سجلت لدرجة الدكتوراه ، مع فؤاد أبوحطب فى موضوع الأساليب المعرفية ... وشرحت له أبعاد الموضوع ... فبادرنى قائلا : «هذا هو موضوعك هنا أيضاً ... فمنذ فترة أريد البحث فى أبعاد هذه الأساليب » وشعرت يومها بالفخر والإعتزاز بثمرات جنّية قدمها لى أستاذى الراحل مصراً أن أصطحبها معى فى غربتى ، لذلك استمر معى فؤاد أبو حطب حتى وأنا بعيد عنه مكاناً قريباً منه روحاً وفكراً ... ومرة أخرى أقول إذا انقطعت الصلة مع الأستاذ الكبير المخلص لن ينقطع الفيض .

حتى أنى ناقشت «فونتانا» بلغة فؤاد أبو حطب وكتبت رسالتى لكى يقرأها فؤاد أبو حطب الذى مارس أستاذيته معى حتى وأنا فى المملكة المتحدة .. وعندما عدت

كان فؤاد أبو حطب سعيداً ، واستمر يوجهنى فى البحث ويراقبنى ، ويشجعنى بالاستمرار بالتعمق فى تناول الأساليب المعرفية بالذات .

وذكرى عزيزة أخرى ، ذلك أنه عندما إنتهيت من ترجمة كتاب «ديفيد فونتانا» Managing Stress والذى خرج بعنوان «الضغوط النفسية» (تغلب عليها وأبدأ الحياة) بمشاركة الزميل الدكتور رضا عبد الله ... ذهبت إلى أستاذى الراحل لمراجعته وتقديمه ، وبعد مدة ، تسلمت منه الكتاب مراجعاً وفيه بعض الملوحظات ، لكنه استوقفنى عند ملحوظة جادة ، مفادها أن أبدل الأسماء الأجنبية التى وردت فى دراسات الحالة إلى أسماء عربية فقلت له بسيط قال : «لا .... ليس بسيطاً» ، قلت : لماذا؟ قال : «أريدك أن تتحسس حالات مشابهة تقع فى محيط حياتك وحولك فتضفى على هذه الأسماء إحساسا عربيا خالصا للقارئ ... أريده كتاباً عربياً وليس أجنبياً» .

وفعلا حدث ذلك .. وذهبت إليه أطلب تقديمًا وعد به لهذا الكتاب . فأحالنى إلى ميعاد آخر ... وفى الميعاد هذا ذهبت ، فرد على بلهجة حادة ... «أنا مشغول جداً يا دكتور ..» فقلت إن الكتاب فى المطبعة ، فقال «وماذا أفعل ..؟» . قلت بلهجة سريعة : «إن لنا حقاً فيك لا تستطيع إنكاره» ، فوجدته يترك ما فى يده وينظر إلى فى هدوء غريب مفاجئ كأنه يرانى لأول مرة ، وبعد برهة مرت على كأنها دهر .. قال : «صحيح لكم حق على ... دكتور: «قلت له نعم »، قال : «إغلق على الباب وانتظر برهة فى الحجرة المجاورة ، من فضلك» ، وبعد ساعة جاءنى ومعه التقديم ، قدمه لى وهو يقول مبتسماً : «مبسوط» .. قلت له آسف جداً على ما حدث ... ، قال : «لا ... نعلاً كلامك صحيح ، ربنا يوفقكم ..» ، وقرأت التقديم فإذا به يختمه بالنص التالى الذى يظهر منه ، حبه وحدبه علينا نحن تلاميذه الأوفياء : «إن مترجمى هذا الكتاب من تلاميذ البروفسور «فونتانا» فى الدكتوراه ومن تلاميذى فى الماجستير ، فهما جهد مشترك له ولى فى إعدادهما العلمى والأكاديمى فى مجال علم النفس ، وهو شرف جدير لى بأن أعتز به ، فهما من خيرة شباب علم النفس فى مصر ، ومن حقهما علىّ الذى يكاد يفوق حق «ديفيد فونتانا» الصديق أن أفرح وأستبشر بترجمتهما للطبعة العربية لهذا الكتاب الرائع ، الذى أرجو أن يحظى من القارئ العربى ما يستحقه من استقبال طيب يتوازى مع الجهد العظيم الذى بذل فيه ليخرج للناس وكأنه قد كتب باللغة العربية لغة أصيلة وليس ترجمة أجنبية ... إلخ» .

إن عزائنا فى هذا الأستاذ الكبير ، الذى هو رمز من رموز الشموخ فى جيل العمالقة ليس التأبين واسترجاع الأشجان بقدر ما هو فى ترسم خطاهم فى محاولة

جادة لحمل المشاعل التى نغار كل الغيرة عليها ، فإن لم نكن إمتداداً لهم فيحسبنا أن نواصل مسيرتهم أوفياء لعهدهم الذى استأمنونا عليه واستودعوا الله فيه أمانة فى أعناقنا ، أوفياء لهم كما كانوا أوفياء لنا .

والله نسأل أن يتغمد الراحل الكريم بواسع رحمته وأن يقوى عزمنا على استكمال مسيرته والتصميم عليها ... وندعوه سبحانه وتعالى أن يطيل من عمر زملائه من جيله الرائد حراساً للمسيرة وحفاظاً عليها . إنه على مايشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

هذا وبالله التوفيق ،،،،